Indonesian Journal of Arabic Studies, Vol. 4 Issue 1, May 2022
Avaliable online at http://www.syekhnurjati.ac.id/jurnal/index.php/ijas/index
DOI : **10.24235/ijas.v4i1.9908**
Published by Departement of Arabic Language and Literature, Faculty of Adab
IAIN Syekh Nurjati Cirebon, Indonesia

Patriotic trends in the poems of Mahmoud Sami Al-Baroudi: A Descriptive and Analytical Study

الاتجاهات الوطنية في أشعار محمود سامي البارودي: دراسة وصفية تحليلية

Mohammed Shareef Mohammed Hafees hafeezzahry@gmail.com
Department of Arabic Language & Literature,
KIRKHS, International Islamic University Malaysia

Nasr El Din Ibrahim Ahmed Hussain nasr@iium.edu.my
Department of Arabic Language & Literature,
KIRKHS, International Islamic University Malaysia

• ***Received:*** 29.01.2022 • ***Accepted:*** 24.04.2022 • ***Published online***: 29.05.2022

Abstract: *The poet Mahmoud Sami Al-Baroudi is considered a pioneer of the modern literary renaissance; where he renewed the style of poetry, relying on the molds of the ancients in style and formulation, pouring meanings from his personal experiences and the issues occurred on his time. Among the manifestations of renewal in his poetic productions are the patriotic poems he composed through which he was able to highlight his Egyptian patriotic sentiment. Since some critics directed the poet into questioning his Egyptian patriotism, and that he did not record in his poetic traces of the issues and topics of his time, this study came with the aim of shedding light on his national trends and the factors affecting his Egyptian patriotism, and the main themes in which he dealt with the issues of his time revealing his patriotism sincere. This study is important because it focuses on patriotic poems that clearly effect on the feelings; Considering that national literature has a significant impact on the formation of a good citizen, The study concluded that the patriotic trend changed in al-Baroudi's poems according to the different stages he went through in his life, and several factors combined to refine his national personality, which led to the expansion of the circle of patriotic poetry as he invested his poetic output in resisting political corruption, urging Egyptians to renaissance education, establishing the constitution and parliament, praising Egyptian heroes, and fighting against the foreign colonialism, as well as providing guidance to Egypt's rulers.*

Keywords: Patriotic Poem, Egyptian Patriotism, Factors for Patriotism, Themes of Patriotic poems

الملخص: يعتبر الشاعر محمود سامي البارودي رائداً للنهضة الأدبية الحديثة حيث قام بتجديد أسلوب الشعر معتمداً في ذلك على قوالب القدماء في الأسلوب والصياغة، فصبّ المعاني من تجاربه الشخصية وقضايا عصره، ومن مظاهر التجديد في إنتاجه ما نظمه من الأشعار الوطنية التي تمكن من خلالها إلى إبراز عاطفته الوطنية المصرية، وبما أن بعض النقاد وجه إلى الشاعر ما يشكك في وطنيته المصرية، وبأنه لم يسجل في آثاره الشعرية من قضايا عصره وموضوعاته، فجاءت هذه الدراسة بهدف تسليط الضوء على اتجاهاته الوطنية

والعوامل المؤثرة في وطنيته المصرية، والموضوعات الوطنية التي تناول فيها قضايا عصره ما يكشف عن وطنيته الصادقة، كما أن هذه الدراسة لها أهميةٌ لأنها تركز على الأشعار الوطنية التي تؤثر تأثيراً واضحاً على المشاعر الوطنية؛ باعتبار أن الأدب الوطني له أثرٌ كبيرٌ في تكوين المواطن الصالح، واستنتجت الدراسة أن الاتجاه الوطني تغيّر في قصائد البارودي بحسب المراحل المختلفة التي مر بها في حياته، كما تظافرت عدة عوامل على تهذيب شخصيته الوطنية التي أدت إلى توسيع دائرة الشعر الوطني، حيث سجل في أشعاره ما يكشف عن مدى حبه لمصر، وحنينه إليها، وفخره بآثارها، كما استثمر نتاجه الشعري في مقاومة الفساد السياسي، وحث المصريين على النهضة التعليمية، وتأسيس الدستور والمجلس النيابي، والإشادة بالأبطال المصريين، والمناضلة ضد الاستعمار الأجنبي، وكذلك تقديم التوجيه والإرشاد لحكام مصر.

الكلمات الدلالية: الشعر الوطني، الوطنية المصرية، عوامل الوطنية، الموضوعات الوطنية.

المقدمة

تعدّ القومية والوطنية من أهم النزعات الاجتماعية الوجدانية، فالقومية فهي علاقة تربط بين الأفراد الإنسانية برابطةٍ واسعة تتجاوز حدود البلاد، وفقاً للأمور الموحدة بينهم من تاريخٍ ولغة وأصول عرقية وسمات ثقافية. أما الوطنية فهي التي تهمنا في هذا المقام، وقد عرفها بعضهم بقوله: "الوطنية هي مشاعر عاطفية ووجدانية تتكون عند الفرد تجاه الوطن أو الأرض التي يحبها" (Az-Za'bi, 2009). فالوطنية إذن رابطة عاطفية تربط بين أفراد الوطن، وتربط أيضاً بينهم وبين أرضهم، كما يلاحظ من لفظ الوطنية من حيث يعود أصلها اللغوي إلى الوطن. وأن هذا الارتباط هو الملهم للأدب الوطني الذي تعددت منطلقاته وأبعاده ومعطياته في الشكلين من الشعر والنثر.

وقد عرِّف الشعر الوطني بأنه "الشعر الذي يدور حول قضايا الوطن، ومشكلاته السياسية والاجتماعية، والذي يصور حب الإنسان لوطنه ولأبنائه"(Fawaz, 2000). فالشاعر في هذا النوع من الشعر يصور آلام الشعب وآمالهم، ويظهر فخره بالانتماء إلى وطنه وحبه له ولأبنائه، ويناديهم لمواجهة الظلم والفساد السياسي، ويدعو إلى حكومة نموذجية تكفل العدل والمساواة. ويعدّ الاتجاه الوطني من أبرز الأغراض المستحدثة، ولهذا فإن من الباحثين من يرى أن الشعر الوطني كان امتدادا لما مضى في العصور السابقة من الأشعار السياسية. وفي المقابل، منهم من يرى بأن الاتجاه الوطني إنما هو غرض جديد ظهر في العصر الحديث، نتيجة استعمار البلاد العربية، حتى أصبح بوقاً ترتفع فيه صيحات الوطنيين باسم شعوبهم للدعوة إلى الاستقلال وطلب الحرية (Fawaz, 2000).

ويعتبر رفاعة الطهطاوي أسبق الشعراء المصريين إلى تناول الأشعار الوطنية (Al-Hufi, 1978)، بينما يرى بعضهم بأن صالح مجدي المصري كان الأسبق إلى ذكر كلمات الوطن والوطنية في شعره (Husain, 1968). والحقيقة أن السبق يعود لرفاعة الطهطاوي، لأنه أسبق زماناً من صالح مجدي، كما أن صالح مجدي

من تلاميذه الذين تأثروا بأفكاره، ولهذا صرح بعض الكتاب بأنه أول رائد لهذا الاتجاه الأدبي (Ar-Rafi'i, 1992).

وقد انطلق الشعر الوطني بالبارودي انطلاقاً واسعاً حتى عدّ بعض الكتاب مدرسة البارودي بأنها "مدرسة وطنية وبعث أدبي، وقد تأثر بها جميع الشعراء الوطنيين المجلين". فللبارودي فنون عدة في أشعاره الوطنية من حبه وحنينه إلى مصر، ووصفه لطبيعتها وآثارها وفخره بها، ودعوته إلى الثورة ضد السياسة الفاسدة، ومناداته بالحكومة الدستورية، ومكافحته ضد الاستعمار الأوروبي، وإشادته بالوطنيين وغيرها.

وقد انتقد بعض النقاد البارودي في ذاتية وطنيته المصرية بأنه لم يخلص في ثوراته ضد الفساد الساسي والاستعمار الأجنبي (Al-Hadid, 1990)، وأنه لم يخرج في آثاره الأدبية من موضوعات عصره، ولم يأت بجديد في مضمون قصائده دون تقليده للقدماء في المضمون والأغراض الشعرية. فتسعى هذه الدراسة إلى تعريف مراحل حياة الشاعر البارودي التي اختلفت اتجاهاته الوطنية خلالها، ومناقشة العوامل التي أثرت في وطنيته المصرية، ثم تحليل قصائد البارودي الوطنية التي عالج فيها قضايا عصره مما يدل على إسهاماته في تجديد أغراض الشعر العربي، وما تعبّر عن الإخلاص والذاتية في وطنيته المصرية.

منهجية البحث

وقد اعتمد الباحث في هذه الدراسة على منهجين وهما المنهج الوصفي والمنهج التحليلي. وقد استخدمه الباحث لدراسة حياة الشاعر محمود سامي البارودي ومراحلها، ومناقشة ينابيع وطنيته، بقصد الكشف عن الحالات الاجتماعية والسياسية في عصره مما تعين على معرفة مسيره إلى نظم القصائد التي عبرت عن وطنيته المصرية. واعتمد الباحث على هذا المنهج في دراسة أشعار البارودي الوطنية التي أبرز فيها شعوره بالوطنية المصرية، كما استثمر فيها قريحته الفذة لتغذية روح الوطنية لدى الشعب المصري.

نتائج الدراسة وتحليلها

حياة البارودي ومراحلها

فقد ولد الشاعر محمود سامي البارودي بالقاهرة سنة 1839م لأبوين من الشراكسة، وعاش فترةً من الزمن تقارب خمسة وستين عاماً، فتنوعت حياته على ثلاثة مراحل؛ بناءً على الظروف السياسية والاجتماعية التي عايشها. وتتمثل المرحلة الأولى في فترة شبابه التي عاشها بين رغدٍ ولغو، وحياته العسكرية التي أتيحت له فيها فرصة الاتصال بالجيش، والمشاركة في الحروب، وقيادة الجنود، وقد سمى بعضهم هذه المرحلة بالمرحلة الوردية(An-Nami, 1994).

وقد تيتم البارودي وهو في السابعة من عمره فحملت أمه فاطمة هانم على كاهلها مسؤولية تربية ولدها، وألحقته بالمدرسة الحربية مع أقرانه من الشراكسة، وتخرج منها سنة 1854م، فقد تحققت آماله في أن يسير على درب أبيه حيث تخرج ضابطاً وفارساً مثله، وذلك في عهد عباس الأول، وكان قد عدل عن

الخطة التي بدأها محمد علي ومال إلى التركية والتعصب لجنسه (Al-Hadid, 1990). فلما ضاقت إقامته بمصر سافر إلى الأستانة، والتحق بالوزارة الخارجية، وأقام فيها سبع سنوات، ثم رجع إلى مصر وعاد إلى الخدمة العسكرية، وأُرسِل في بعثة عسكرية إلى فرنسا لمشاهدة الاستعراض السنوي للجيش الفرنسي، وسافر إلى بريطانيا لمشاهدة الآلات الحربية والأعمال العسكرية، ثم قاد الجيش المصري إلى جزيرة كريت سنة 1865م حين ثارت على الدولة العثمانية، كما وجد فرصة للمشاركة في الحرب الدائرة بين روسيا والدولة العثمانية سنة 1877م (Dhaif, 2006).

وقد كان شعر البارودي في هذه المرحلة يمتزج بين واقع الحياة المصرية وبين الحياة البدوية التي كانت تحيي في خياله، وذلك على محورين أساسيين: الوجه اللاهي المتمثل في الحب والخمر والطبيعة، والوجه الجاد المتمثل في الشجاعة والنجدة (An-Nami, 1994). وأما بالنسبة إلى استلهام الشاعر روح الوطنية المصرية في قصائده التي نظمها في هذه المرحلة، فقد تمثل في بعض النصوص التي كشف فيها عن تشوقه وحنينه إلى وطنه وهو مشتغل في الحروب، كما سنلقي الضوء عليها في الموضوعات الوطنية في قصائده.

وأما المرحلة الثانية في حياة البارودي فهي التي تتمثل في مشاركته للحياة السياسية المضطربة رغبةً في إصلاحها وتقويمها، إذ كان الشاعر فيها ثائراً وطنياً حيث سمى بعضهم هذه المرحلة بأنها المرحلة الحمراء (An-Nami, 1994). وتعتبر سنة 1868م عام التحول والانتقال في حياة الشاعر، لأنها فتحت صفحةً جديدة في عيشه، ودفعته إلى التفكير في القضايا المصرية؛ اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا، وإلى الشعور بالوطنية المصرية، وهو في التاسعة والعشرين من عمره، حيث أدرك بإحساسه العميق فساد حكم الخديوي إسماعيل، وفساد حاشيته، وهذا ما أثقل ظهر البلاد من أعباء الديون، إذ استمر الخديوي في إنفاق القناطير من الذهب على قصوره وملذاته(Dhaif, 2006). وهذه الأوضاع السياسية المصرية دفعت الشاعر إلى نظم القصائد التي تحتوي على الدعوة إلى الثورة ضد الحكومة الفاسدة، واشتدت حميته الوطنية في عهد الخديوي توفيق الذي استمر على طريقة والده في السياسية الفاسدة المهادنة للاستعمار.

وشعره في هذه المرحلة كان يدور حول العناصر الآتية: الكشف عن الفساد السياسي ومساوئه مما أصاب مصر اقتصاديا وسياسيا وطبيعيا، واستنهاض الهمم المصرية ضد الفساد السياسي، والدعوة إلى إقامة حكم عادل مبني على الشورى والدستور والنظام النيابي، وتخفيف القبضة الخديوية على الحياة السياسية، ومنع التدخل الأجنبي الأوروبي (An-Nami, 1994).

وقد مثلت المرحلة الثالثة حياة البارودي في منفاه – سرنديب – من 1882م إلى 1899م، وسنواته الأخيرة إلى وفاته سنة 1904م، وهي أشد المراحل التي مرت عليه، وقد سماها بعضهم بالمرحلة الرمادي (An-Nami, 1994). وعندما أقام البارودي في منفاه قام بنظم القصائد في الحنين والتشوق إلى الوطن الذي كان يحرك قلبه، مما يعبر عن مدى حبه لمصر، كما أنشد قصائد المرثيات يرثي فيها زوجته وابنته سميرة، وشكيب أرسلان، ومحمد عبده، وحسين المرصفي وغيرهم. وقد عاش مع رفقائه في (كولومبو) سبعة أعوام،

فلما دبت الشحناء بينهم، صار كل يدفع عن نفسه التبعة التي حلت به، ويلقيها على غيره، فانتقل إلى (كَندي) فقضى بها عشرة أعوام (Al-Barudi, 2013). وقد لزم بيته بعد عودته إلى مصر، فلم يختلط بأحد غير أهله وأصدقائه المخلصين، وعكف على تنقيح ديوانه (Swailem, 1997).

وأما شعر هذه المرحلة فكان يدور على النقاط التالية: الغربة والوحشة التي أحاطت به في منفاه، الحنين إلى أصدقائه وأقربائه، والتشوق إلى مصر بذكر كرامتها وعزتها وطبيعتها، ذكريات الماضي، وذكريات شبابه الحلوة والمرة، ذكريات الثورة التي قام بها ضد الفساد السياسي، وتوبيخ رجال الحكم الرجعي وأنصاره الذين تخاذلوا عنه، والبكاء على موت الأصدقاء.

وطنية البارودي وعوامل المؤثرة فيها

وقد قامت هناك حركات سياسية ونشاطات قومية ووطنية مع طلوع القرن التاسع عشر بعد الثورة الصناعية في بلدان أوروبا الغربية الوسطى، فكانت للحملة الفرنسية على مصر دور بارز في إيقاظ الوعي القومي والاجتماعي والسياسي ضد الظلم (Sholabi, 2015). أما الوطنية التي شاعت في البلاد المصرية فكانت على منظورين: أحدهما الوطنية التي كان هدفها إنشاء رابطةٍ عاطفية بين المصري ووطنه والعمل على نهضته، وأداء الحق الواجب عليه نحو وطنه، مع الرابطة الدينية التي تربط بهم بالخلافة العثمانية. وأما الثاني فهي الوطنية التي كانت تحارب فكرة الرابطة الدينية (Husain, 1968). فكانت طبيعة الوطنية عند البارودي على المنظور الأول، حيث استهدفت إلى نهضة مصر ورفع الظلم عن الشعب المستعبد، وتحرص على بناء علاقة وثيقة مع الخلافة العثمانية (Husain, 1968).

قد وُجدت دوافع قادت المصريين إلى الشعور بالوطنية بشكل عام؛ فكان للبعثات العلمية التي أوفدها محمد علي دور بارز في إيقاظ الهمم المصرية، وكان التعليم أيضاً باعثا قويا لأن الطلبة بدأوا خلال دراستهم يدركون كرامة مصر ومفاخرها الماضية، فاهتموا في استعادتها (Al-Hufi, 1978). وقد أدى جمال الدين الأفغاني مسؤوليته في تغذية روح الوطنية لدى الشعب المصري (Ammarah, 2014). كما اهتزت المشاعر الوطنية المصرية لدى الشعب المصري نتيجة ما كشفه علم الآثار عن حضارة مصر العريقة التي وصلت إلى قمة مجدها، وما أبرزه حفر قناة السويس من أهمية موقعها في الخريطة العالمية (Dhaif, 2006).

ووقفنا على عوامل خاصة أثرت في وطنية البارودي، وهي التي قادته إلى تسجيل الوطنية المصرية في أشعاره الرائعة. وكان شاعرنا البارودي ذا شخصيةٍ فروسية تشتمل على الشجاعة والفتوة والنجدة، وقد يكون ذلك عائدا إلى نسبه الشركسي، وإلى عكوفه على الأشعار القديمة تدعو إلى علو الهمة، وهذا من شأنه أن يحث صاحبه على طلب المجد والكرامة (Dhaif, 2006). وهذه الشخصية زادته عنايةً بقضايا وطنه، ودفاعا عنها ضد الاستعمار الأجنبي، ومقاومةً للحكومة الفاسدة واهتماماً بتأسيس الدستور الذي يضمن العدالة والمساواة.

وأحب البارودي مصر حباً امتزج بعاطفته الصادقة، لأن مصر وطنه التي ولد فيه، وتربع في أنحائه، وذاق خيراته وبركاته، ولهذا يمكن أن نرى مظاهر هذا الحب والشوق منتشرة في أشعاره بين دفتي الديوان كما سنناقش لاحقا.

وانتسب الشاعر إلى أسرة شركسية تعود أصولها إلى أمراء المماليك الذين حكموا مصر حوالي قرن ونصف (1382م- 1518م) نظراً لأن المماليك لم يجدوا لهم وطناً غير مصر منذ أن وفدوا إليها، ودليل ذلك دفاعهم عن مصر، حيث قادوا الجيوش المصرية لمواجهة الزحف الصليبي (Al-Hadid, 1990). فكان البارودي من هذا العنصر الذي ذاع صيته في الشجاعة والدفاع عن البلاد المصرية، وقد أكسبه ذلك طموحا في السياسة والوطنية المصرية.

وقد أثرت حياته العسكرية في وطنيته المصرية، لأن الجند هم الحماة للوطن والدولة، ومن شأن الجندي الصالح أن يحب وطنه ويدافع عنها، وزادته الحياة العسكرية اقتفاء مسلك أبيه وأجداده في حب مصر والدفاع عنها. وقد أرسل الشاعر في بعثة عسكرية إلى أوروبا، ما أتاحت له فرصة الاطلاع على حضارتها التي أسرعت بعجلة تقدمها إلى الأمام بعد الثورة الفرنسية التي كانت نتيجة البذرة الأولى للوطنية والقومية في أوروبا. وكذلك تجربته في البعد عن الوطن عندما انشغل في حرب كريت وحرب روسيا أدته إلى أن يتشوق ويحن إلى وطنه.

وقد تأثر البارودي بشخصية جمال الدين الأفغاني الذي يعد رائدا من رواد النهضة المصرية. فلما فضاق الأفغاني بالأوضاع الفاسدة في عهد الخديوي إسماعيل، فخرج بخيرة الوطنيين فأسس بهم محفلاً وطنيا شرقيا (Ammarah, 2014). وكان الكثير من المثقفين يذهبون إليه لينهلوا من علمه وأفكاره وآرائه، وكان شاعرنا البارودي من أوائلهم (Al-Hufi, 1978). وكذلك تعلقت شخصية البارودي بمحمد عبده أحد الرواد للنهضة الحديثة الإسلامية، والذي لعب دوراً بارزا في مواجهة الأخطار السياسية ونفي إلى بيروت بعد هزيمة الثورة العرابية؛ فكانت نظرتهما إلى القضايا الوطنية متشابهة من الناحية الإصلاحية (Murasyadah, 2009).

وكان انخراط البارودي في السياسة المصرية أهم العوامل المؤثرة في وطنيته، إذ بدأ حياته السياسية بعد ما عاد من كريت بتعيينه ياورا للخديوي إسماعيل، ثم تولى وزارة الأوقاف في وزارة مصطفى رياض سنة 1879م، ثم أسندت إليه الوزارة البحرية والحربية سنة 1881م، ثم تم تشكيل الوزارة برئاسة البارودي في سنة 1882م (Al-Hadid, 1990). فخطبته في المجلس الأول للنواب كشفت عن وطنيته الحقيقية وديمقراطيته العميقة "وآخر ما نتواصى به ألا نجعل للتعصب المشربي دخلا في الأعمال الوطنية التي كلفتكم البلاد أن تقوموا بأدائها، وأن تكون الوطنية الحقة هي الباعث القوي على كل فكر، والغاية.."(Al-Hadid, 1990).

وقد أثرت في وطنيته علاقته مع أحمد عرابي الذي كان جنديا ثم ترقى إلى مرتبة الضباط في عهد سعيد باشا الذي كان يحض الشعب على الدفاع عن مصر من العدوان الأجنبي، كما أنه أهدى إلى عرابي كتابا عن تاريخ نابليون، مما جعله يتفكر في تأسيس حكومة تتقيَّد بالدستور (Al-Hufi, 1978). أما بالنسبة

إلى علاقة البارودي به، فقد ابتدأت منذ مقاومتهما لسياسة الخديوي إسماعيل، ثم انضم الشاعر سنة 1879م إلى الحزب الوطني الذي كان عرابي أحد رؤسائه. وقويت تلك العلاقة حينما تولى عرابي وزارة الجهادية في الوزارة الوطنية برئاسة البارودي، كما أن محاولتهما جديرة بالذكر لبيان مبادئ الثورة وأهدافها تحت موضوع "برنامج الحزب الوطني" في جريدة "التيمس البريطانية" وذلك ردّا على ما شنّته الصحف الأوروبية ضد الثورة ورجالها، ثم مسايرتهما للقوى الوطنية ضد القوى الرجعية التي تمثل الخديوي توفيق وحاشيته والمستعمرين، ثم بعد الهزيمة معاناتهما معاً لتجربة النفي في المنفى (Swailem, 1997). "لولا أن وضعت في يده أغلال المنفى لظل يناضل حتى الذماء الأخير"(Dhaif, 2006).

الموضوعات الوطنية في أشعار البارودي

وقد لاحظنا الشاعر البارودي يوسع نطاق الاتجاه الوطني في قصائده التي احتوى عليها ديوانه، حيث عالج قضايا الشعب المصري من عدة نواحي. سنحاول هنا لتسليط الضوء على أبرز العناوين الوطنية في أشعاره، بقصد الكشف عن إسهاماته الوطنية خلال قريحته الشعرية.

1- حبه لمصر وحنينه إليها.

كان الشاعر البارودي يحب وطنه من أعماق قلبه، وزادته تجربة النوى عن وطنه حباً به وشوقاً إليه، حيث ذاق مُرّ الفراق بذهابه إلى الحروب: حرب كريت وحرب روسيا، ثم نفي إلى (سرنديب) وطالت إقامته بها فاشتد تشوقُه وحنينه إلى وطنه.

فنجد الشاعر في حرب كريت التي استغرقت عامين يتشوق إلى مصر ويتغنى بطبيعتها، كما نرى في الأبيات الآتية أنه يتذكر موارد المياه في مصر، فعبر عن نفسه بأنها مغرمة بحب وطنه، لأنه أول مكان حلّ به ونشأ في ربوعه، ويدعو الله بأن ينزل الغيث الكثير على تربة مصر حتى تزداد خضرتها، ثم يعلو إلى قمة الحنين والحب لوطنه بما قاله من أنه لم يفارق وطنه عن رضا.

ذَكَرَتْ مَوَارِدَهَا بِمِصْـرَ وَأَيْنَ مِنْ   مَاءٍ بِمِصْرَ مَنَازِلُ الرُّومَـــــانِ؟
وَالنفسُ مولعةٌ وَإنْ هيَ صادفتْ   خَلَفــاً بِأَوَّلِ صَاحِبٍ وَمَكَــانِ
بَلَدٌ خَلَعْتُ بِهَـــا عِذَارَ شَبِيبَتِي   وَطَرَحْتُ فِي يُمْنَى الْغَرَامِ عِنَــانِي
فَصَعِيدُهَا أَحْوَى النَّبَاتِ، وَسَرْحُهَا   ألمى الظـــلال وزهرها متداني
فارقتها طلبــــا لما هو كائن   والمرء طوع تقلب الأزمـــان (Al-Barudi, 2013)

وكذلك حثته دوافع الفراق إلى أن يتغنى بالحنين إلى مصر يوم عيد الفطر، وهو في معركة روس سنة 1879م، يفتح الشاعر تلك القصيدة بالدعاء لرؤية مصر، ويتحسر على عدم وصول أخبارها إليه منذ أيام، ويظهر غربته، ويترجى الرجوع إلى وطنه، وأنه في ذلك نظير العطشان الشديد، ويختم القصيدة منادياً الله أن يعيده إلى وطنه لكي يفرح بأولاده ويفرحوا به.

أَرَاكَ الْحِمَى! شَوْقِي إِلَيْكَ شَدِيدُ   وصبري ونومي في هواكَ شريـدُ

مضى زمنٌ لم يأتني عنكَ قـــادمٌ   ببشرى، ولم يعطف عليَّ بريـدُ

وَحِيْـدٌ مِنَ الْخُلاَّنِ في أَرْضِ غُرْبَةٍ   أَلاَ كُلُّ مَنْ يَبْغِي الْوَفَـاءَ وَحِيـدُ

عسى اللهُ يَقضى قُربَـةً بعدَ غُربَةٍ   فَيَفْرَحَ باللُّقْيَا أَبٌ وَوَلِيدُ (Al-Barudi, 2013)

أما حياة الشاعر في منفاه فقد دفعته بقوةٍ إلى الإكثار من التغني بالحنين إلى وطنه، فلما قل صبره في أخريات حياته انعكست شدة شوقه وحنينه إلى مصر في قصائده، حتى صار هذا النوع من الشعر أجود ما قاله الشاعر في حياته الشعرية (Kanja & Mazid, 2017). وقد أحسن في التشوق إلى الوطن الذي كان حراك قلبه، فبدأت قيثارة الشاعر تتغنى بالحنين إلى وطنه منذ فراقه له، والأبيات الآتية تعتبر نشيدة التوديع لبلاده، حيث افتتحها بطريقة الشعراء الجاهليين الذين يفتتحون قصائدهم بالغزل والبكاء على الديار، ثم يعبر عن لوعته الشديدة عند فراق وطنه، وأن دموعه سالت كالمطر الهاطل حتى بلت أعالي صدره، فكأنما احترق قلبه من شدة النفَس المملوء من الحزن، وكاد أن يموت لأجله.

عناءٌ، وَبأسٌ، وَاشتيـــــاقٌ، وَغربةٌ   ألاَ، شدَّ ما ألقـاهُ في الدهرِ منْ غبنِ

وَلَمَّا وَقَفْنَـــــا لِلْوَدَاعِ، وأَسْبَلَتْ   مدامعنا فـــــوقَ التـــرائبِ كالمـزنِ

وَمَا كُنْتُ جَرَّبْتُ النَّـوَى قَبْلَ هَذِهِ   فَلَمَّـــا دَهَتْنِي كِدْتُ أَقْضِي مِنَ الْحُزْنِ (Al-Barudi, 2013)

كما تتجلى عاطفة الشاعر الحزينة في الشوق إلى وطنه في الأبيات الآتية، فالحزن قد صاحبه منذ أن غادر مصر، واستمر معه ذلك حتى صار سقيماً، فيظنّ الذين يعودونه بأنه أصيب بمس شيطاني، لكن علة سقمه ترجع إلى الحزن الذي في قلبه، فصار عليلاً في المنفى لشدة لوعته واحتراق قلبه(Al-Barudi, 2013) . ونجد ما أودعه الشاعر في الأشعار التي نظمها وهو في (كندي) من آلامه وشجونه وشكواه، فيفتتحها بذكر النسيم الذي سرى بالرائحة الطيبة المطربة، حتى شعَر من رائحتها كأنما شرب جرعة من (برندي) ثم يضيف قائلاً إن شوقه وآلامه وشجونه لا تزال معه، وأنه يحترق شوقاً إلى وطنه حينما يدور في فؤاده.

أنسيـــمٌ سرَى بنفـحةِ رَنـدِ؟   أَم رســولٌ أدَّى تَحيَّة هِنـــــــد؟

أطربتـــنى أنفـــاسُهُ، فكَأَنِّى   مِلْتُ سُكْراً مِنْ جُرْعَةٍ مِنْ (بِرَنْدِي)

طَالَ شَوْقِي إِلى الدِّيَارِ، وَلَكِنْ   أينَ مِن مصرَ من أقـــامَ بكنــدي؟

كلَّمـا صوَّرتهُ نفسِى لِعيـنِي   قدحَ الشَّـوقُ في الفؤادِ بِزَندِ (Al-Barudi, 2013)

ولاحظنا الشاعر في أبيات يعلو فيها شوقه إلى وطنه حيث ينادي بطبيب أو راق يعالج حزنه، وقد استولى فراقه عن وطنه على رمقه الأخير الذي بقي عليه منذ أيام شبابه (Al-Barudi, 2013). كما وجدناه في الأبيات الآتية يصور شدة شوقه وحنينه إلى وطنه من خلال تشبيه نفسه بالإبل العطشان الذي يرجو منهلاً يرتوي منه، كما عبر عن شوقه بأنه لم يشبع من عطشه حتى يعود إلى مصر، فيتناول شربة ماء من النيل.

مَتَى تَرِدِ الْهِيمُ الْخَـــوَامِسُ مَنْهَلاً   تَبُلُّ بِهِ الأَكْبَادَ وهْيَ عِطَـاشُ؟

فَهَلْ نَهْلَةٌ مِنْ جَدْوَل النِّيلِ تَرْتَوِي   بِها كَبِدٌ ظَمآنةٌ ومُشــــــاشُ؟

دِيَارٌ يَعِيشُ الْمَرْءُ فِيهَا مُنَعَّماً   وأطيبُ أرضِ الله حيثُ يُعـاشُ

وكذلك لاحظنا الشاعر في أبيات يخاطب فيها مصر ويصب عاطفته الجياشة فيقول: قد طال شوقي إليك، وأصابتني محن شديدة في حبك، وأنت تخطري على قلبي طوال اليوم، كما أنت همي وغمي في الليل إن خالطني النعاس، ولا أستطيع أن أنساك، لأن فؤادي مرتهن عندك، وأنا لا أبالي ما أصابني من المصائب وأنت سليمة منها(Al-Barudi, 2013).

ووقفنا أيضا أبيات يكشف فيها عن حنينه الجارف إلى موطنه فيقول إنه افتقدَ لذة العيش بعد فراق وطنه، كما بعدت عنه حياة الشباب الناعمة، فيتمنى العودة إلى الوطن، وهو واثقٌ بفضل الله بأنه يزيل همه وغمه(Al-Barudi, 2013) . فلما طال نفي الشاعر واغترابه، واشتد به الشوق إلى أهله ووطنه، نظم الأبيات الآتية متجهاً إلى الله، ومستغيثا به أن ينجده من أسره ويعيده إلى وطنه:

يَا رَبُّ! قَدْ طَالَ بِي شَوْقِي إِلَى وَطَنِي   فَاحْلُلْ وَثَـاقِي، وأَلْحِقْنِي بِأَشْبَاهِي

وَامْنُنْ عَلَيَّ بِفَضْلٍ مِنْكَ يَعْصِمُنِي   مِنْ كُلِّ سُوءٍ، فَإِنِّي عَاجِزٌ وَاهِي

2- أشعاره في الثورة ضد الفساد السياسي.

تناول البارودي قسطاً وافرا في أشعاره السياسة المصرية، حيث يدرك المتعمق فيها مدى إحساسه الوطني الذي لا يصده خوف ولا يرده قلق، وذلك لما كان يمتلكه من خطة سياسية تستهدف إقامة نظام سياسي يكفل العدل والمساواة ويبعد الظلم والجور، وذلك ما دفعه بقوةٍ إلى الدعوة ضد السياسة الفاسدة التي تخبط فيها البكوات والباشوات والخديويات.

وهذه القصيدة على قافية العين تعبر عن بداية ثورة الشاعر ضد الفساد السياسي في عهد الخديوي إسماعيل، وهي ثورة على حاكم ظالم، وعلى حاشيته الفاسدة، وقد اعتبرها بعض الدارسين ثورة مبكوتة، كما أن الأبيات الآتية هي نشيدة الثورة المبكوتة (Al-Hadid, 1990). وحاول البارودي للتعبير عما أدركه من إحساس للعاقبة المخيفة للبلاد نتيجة الفساد السياسي؛ وما شاهده من الظلم الذي جثم على صدور الشعب المصري، فيذكي شعور الوطنية لدى المصريين بذكر الملوك الأقدمين الذين شادوا النهضة المصرية(Al-Barudi, 2013).

فلا تقعدَن للدهر تنظــــــر غِبَّـهُ   على حَسرةٍ، فاللهُ مُعطٍ ومانـــــعُ

ولستُ بِعلاَّمِ الغيوبِ، وإنَّمـــــــا   أَرَى بِلِحَــاظِ الرَّأْيِ مَـــا هُوَ وَاقِعُ

فَأَيْنَ الْمُلُـــــوكُ الأَقْدَمُونَ تَسَنَّمُوا   قِلاَلَ الْعُـــلاَ؟ فَالأَرْضُ مِنْهُمْ بَلاقِعُ

مَضَوْا، وَأَقَامَ الدَّهْرُ، وَانْتَابَ بَعْدَهُمْ   مُلُـــوكٌ، وَبَادُوا، وَاسْتَهَلَّتْ طَلاَئِعُ

ثم بلغ الشعور الوطني عند البارودي أقصاه، وقام باستنهاض همم المصريين ضد الخديوي إسماعيل وحكمه الفاسد، مع ما سلكه من مسلك المداراة والملاينة حتى لا يفطن به الخديوي، فيظهر تحسره على نفوس الشعب الضعيفة التي تقبل الهوان، وتمتنع عن الشعور بالوطنية(Al-Barudi, 2013).

فيا قومُ، هبُّــــــــوا، إنَّما العُمرُ فرصةً   وفى الدهرِ طُرقٌ جَمَّةٌ ومنــــــافِعُ

أَصَبْراً عَلَى مَسِّ الْهَــــــــــوَانِ وَأَنْتُمُ   عديدُ الحصى؟ إنّي إلى اللهِ راجِـعُ

أرى أرؤساً قَد أينعتْ لِحصــــــــادِها   فَأَيْنَ وَلاَ أَيْنَ السُّيُوفُ الْقَوَاطِــعُ؟

فكونوا حصيداً خامدينَ، أوِ افزعوا   إِلَى الْحَرْبِ حَتَّى يَدْفَعَ الضَّيْمَ دَافِعُ

فلما عاد البارودي من الحرب التي كانت بين روسيا والدولة العثمانية سنة 1878م، قويت عزيمته الوطنية، وجهَر بها حين رأى مصر أوشكت على الهلاك السياسي أيام الخديوي إسماعيل، والقصيدة اللامية أشهر قصيدة في سبعين بيتاً قالها البارودي حينما تجمع هو والمثقفون: جمال الدين الأفغاني وأحمد عرابي وغيرهما تحت لواء الحزب الوطني، وقاموا بالمناداة باستبعاد تدخل الدول الأوروبية في شؤون مصر، كما أسكب في الأبيات الآتية آلامه على ما حل بمصر حتى اضطربت قواعها، فيقول: اختبرت خير الدهر وشره، فليس هناك أمر سوى التخلص من قيود الحكومة التي تدفعنا إلى الشر، والتي تسوسها طائفة فاسدة، وسياستهم تمس بكرامة مصر(Al-Barudi, 2013).

لكنــنا غرضٌ للشــرَّ في زمــــــنٍ   أَهْلُ الْعُقُولِ بِهِ فِي طَاعَةِ الْخَمَـــــــلِ

قامتْ بهِ منْ رجـــالِ السوءِ طائفةٌ   أدهى على النفسْ منْ بؤسٍ على ثكَلِ

منْ كلَّ وغدٍ يكـادُ الدستُ يدفعــهُ   بُغْضاً، وَيَلْفِظُــظُهُ الدِّيوانُ مِنْ مَلَـــــلِ

ذَلَّتْ بِهِمْ مِصرُ بَعْدَ الْعِزِّ، واضْطَرَبَتْ   قواعــدُ الملكِ، حتى ظلَّ في خلــــلِ

وَأَصْبَحَتْ دَوْلَةُ (الْفُسْطَاطِ) خَاضِعَةً   بَعْدَ الإِبــاءِ، وَكَانَتْ زَهْـــرَةَ الدُّوَلِ

يتبرم الشاعر بالشعب المصري ومصر التي صارت محل إقامة الظالمين والحمق، وانتشر في ربوعها الجور والغدر، وأصبح الناس في بلاء وكرب وجهل، كما يبرز تحسره على الرجال الذين أصابهم الفزع والجبن؛ وليست عندهم الحمية والإباء حتى لا أنهم لم يدفعوا عن أنفسهم مهما أصيبوا في عفتهم (Al-Barudi, 2013)، ثم تطرق الشاعر في الأبيات التالية إلى نوع من تحميس الشعب المصري، وهو إشادته بما قام المصريون القدماء من تضحيات لحفظ كرامة مصر خلال مشاركتهم في الحروب ضد الأعداء، ونالت بهم مصر العزة والشرف.

وَتِلْكَ مِصْرُ الَّتِي أَفْنَى الْجِــلاَدُ بِهَا   لَفِيفَ أَسْلافِكُمْ فِي الأَعْصـرِ الأُوَل

قومٌ أقروا عمادَ الحقَّ وامتـــــلكوا   أَزِمَّةَ الْخَلْقِ مِنْ حَــــافٍ وَمُنْتَعِلِ

جَنَوْا ثِمَارَ الْعُلاَ بِالْبِيضِ، وَاقْتَـطَفُوا   منْ بينِ شوكِ العـوالي زهـــرةَ الأملِ

وللبارودي أبيات يذم بها رجال الحكومة الاستبدادية الذين اتبعوا مسلك الخديوي في تخريب البلاد المصرية سياسياً واقتصاديا حتى صارت منزل الشقاء بعد ما ظلت جنةً لا تساويها بلاد، ولا يرحم فيها الكبير، ولا تعطف فيها الأمهات ولا الأولاد.

حكموا مصر وهي حاضرة الدنيا فأمست وقد خلت في البوادي
أصبحت منزل الشقاء وكانت جنة ليس مثلها في البـــــلاد
وقعـوا بين ريفهـا وقراهـــا بضروب الفساد وقع الجـــراد
في زمـان قد كان للظلـم فيه أثر النار في هشيم القتـاد

يحض الشاعر المصريين على القيام ضد توفيق، فقام بتشبيه من يعيش ويلتذ بالضيم الذي شاع في عصره بالأجرب الذي يلتذ جلده بالحك، ومثّله بالذي لاقاه السيل، فلم يلجأ إلى ملجأ يعصمه فغرق، والدنيا تشرف على الهلاك إذا لم يعش المرء بطلاً فيها، ومن اللوم اطمئنان الرجل بالضيم، وفي يده سيف قاطع يمنعه.

يَرَى الضَّيْمَ يَغْشَـــاهُ فَيَلْتَذُّ وَقْعَهُ كَذِي جَـرَبٍ يَلْتَذُّ بالْحَكِّ جِلْدُهُ
عفـــاءٌ على الدُّنيا إذا المرءُ لم يعشْ بِها بَطَلاً يَحْمِي الْحَقِيْقَـــةَ شَدُّهُ
منَ العـارِ أنْ يرضى الفتى بمذلَّةٍ وفى السَّيـــفِ ما يكفي لأمرٍ يعدُّهُ.

والقطعة الآتية من القصيدة القافية للبارودي، قالها مبرزاً ثباته في الحفاظ على السيادة المصرية، وذلك حينما لم يصادق الخديوي توفيق في التحكيم على المتآمرين الذين خططوا لاغتيال زعماء الثورة، واشتدت حمية الشاعر الوطنية عندما برزت المنافرة بين القوى الوطنية والقوى الرجعية التي يمثلها توفيق وحاشيته.

تَاللَّهِ أَهْدَأُ أَوْ تَقُومَ قِيَـــامَةٌ فيها الدِماء على الدِماءِ تُـراقُ
أنا لا أقرُّ على القبيـــحِ مَهابةً إِنَّ الْقَرَارَ عَلَى الْقَبِيحِ نِفَـــاقُ
قَلْبِي عَلَى ثِقَـــةٍ وَنَفْسِيَ حُرَّةٌ تَأْبَى الدَّنِيَّ، وَصَـــارِمِي ذَلاَّق
فَعلامَ يَخشى المـــرءُ فرقةَ روحِه؟ أَوَ لَيْسَ عَاقِبَـــةَ الْحَيَاةِ فِرَاقُ؟

ولاحظنا الشاعر أيضا يكشف في إحدى سرنديبياته –وهي التي نظمها في سرنديب– عن الدوافع التي أدّت إلى الثورة ضد الحكومة، وهو الظلم الذي شاك أنينُه مسمعه، والغدر الذي أرق نومه، وأنه قام بهذه المهمة حفاظاً على مصر وأهلها(Al-Barudi, 2013) . كما نظم الشعر قصيدة على قافية الصاد تمثل الحاكم المثالي، وما يتحلى به من أوصاف حميدة: اتباع سبيل الرشاد، والإخلاص في العمل، والتنقيب في الأمور، والصبر عند الغموض، والمبادرة عند الوضوح.

ويتضح مما سبق أن البارودي سجّل في ديوانه ما يوحي بوطنيته الصادقة من الأشعار التي كان يهاجم فيها السياسة الفاسدة وحكامها، مستهدفا استنهاض الشعور والحمية الوطنية لدى المصريين بثلاث طرق: التعريض بالظلم والجور التي لدى الحكومة الاستبدادية، والتعريض بما أصاب مصر في كرامتها وشرفها،

والإشادة بالأبطال القدماء الذين حفظوا عزتها ووحدتها، ونطلِّع أيضا على إحساسه الوطني العميق في أشعاره خلال استعراض المبررات للثورة؛ من أنه قام بها حفاظاً على مصر وأهلها من جور الحكام المفسدين، كما نلاحظ الروح الوطنية المصرية في الأبيات التي رسم فيها الشاعر ما يتحلى به الحاكم المثالي المصري من أوصاف حميدة.

3- فخره بمصر.

لاحظنا أن البارودي يجدد في شعر الوصف الذي يعتبر أحد الأغراض الشعرية القديمة، حيث تمكن من وصف بيئته وقضايا عصره، ويعدّ ما وصفه عن مصر من أفضل الفنون الوطنية؛ حيث إنه افتخر بوصف طبيعتها وآثارها. فلم يكن وصفه عن مصر يعكس ما ثبت في قلبه من الشعور بالوطنية فحسب، بل إنه جعل المصريين يلفتون أنظارهم إلى التاريخ المصري المجيدي وموقعها الجغرافي وطبيعتها. وقد جرت أشعار البارودي في وصف مصر على أساسين: وصف الآثار الفرعونية، ووصف الطبيعة المصرية.

وقد وصف البارودي بعض الآثار الفرعونية المشهورة التي تظهر فيها عبقرية الفراعنة القدماء في المعمار والهندسة، واستعرض بذلك التاريخ المصري، واستهدف إلى استنهاض الهمم المصرية، وردّ الثقة إلى نفوس المصريين. وقد أحسن في وصف الهرمين بالجيزة بذكر عظمتهما من الناحية المعمارية حتى يقول إنهما غلبا سطوة الدهر ما حمل الناس على التعجب منه مدى القرون والعصور، وهما أوضح دليل على شدة ذكاء من بناهما وقدرتهم كأنما نقشت إنجازاتهم على سطور تتلى إلى يوم القيامة، وأشاد بأنهما أحسن من صرح بختنصر في مدينة بابل، ومن إيوان كسرى أنوشروان، فلو أن هاروت رأى ما في قمتيهما من الأعجوبة العلمية لترك السحر والكهانة(Al-Barudi, 2013) .

سَلِ الجيزةَ الفيحاءَ عنْ هرَمَى مِصرِ لَعَلَّكَ تَدْرِي غَيْبَ مَا لَمْ تَكُنْ تَدْرِي
بِنَـــــاءَانِ رَدَّا صَوْلَةَ الدَّهْرِ عَنْهُمَا ومن عجبٍ أن يَغلِبـــا صولةَ الدَّهرِ
أَقَامَــــا عَلَى رَغْمِ الْخُطُوبِ لِيَشْهَدَا لبـــــــــــــانيهما بينَ البريَّةِ بالفَخرِ
فكم أممٍ فى الدَّهرِ بــادَت، وأعصرٍ خَلت، وهُما أعجـــوبَةُ العينِ والفكرِ
يُقَصِّرُ حُسْنــاً عَنْهُمَا (صَرْحُ بَابِلٍ) وَيَعْتَرِفُ (الإِيـــوَانُ) بِالْعَجْـزِ وَالْبَهْرِ
فلو أنَّ 'هـاروتَ' انتحَى مَرصديهِما لألقى مَقاليــــــدَ الكَهــانةِ والسِحرِ

وردت الأبيات الآتية في إحدى قصائده على قافية الميم، حيث نوّه الشاعر بالهرمين مستهدفا تنبيه الشعب المصري إلى العلم والتعليم، فوصفهما بأنهما أغرب من الغرائب التي تأتي في المنام، ولا نظير لهما في الشكل والعظمة.

فَانْظُرْ إِلَى الْهَرَمَيْنِ الْمَــــــاثِلَيْن تَجِدْ غَرَائِبـــــاً لاَ تَرَاهَا النَّفْسُ فِي الْحُلُمِ
صرحانِ، ما دارتِ الأفلاكُ منذُ جرتْ على نظيرهمـــا في الشكلِ والعظمِ

وقد ذهب الشاعر إلى وصف أبي الهول بالجيزة، فقال إن أبا الهول عرض نفسه بين الهرمين في هيئة أسد مكبا كفيه على الأرض، وشبه الشاعر نظرته إلى جانب الشرق بنظرة العاشق إلى معشوقه، كأن لديه شوقاً وحباً إلى الشمس أو إلى مطلعها.

وبينَهمـا 'بَلْهيبُ' فى زِيّ رابـضٍ   أَكَبَّ عَلَى الْكَفَّيْـــنِ مِنْهُ إِلَى الصَّدْرِ
يُقَلِّبُ نَحْوَ الشَّرْقِ نَظْرَةَ وَامِقٍ   كَأَنَّ لَهُ شَوْقاً إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ

وصف الشاعر أبا الهول بأنه يتجه نحو الشرق ويلحظ النيل، كما شبه صورته بصورة الأسد المنتظر فريسته، ثم أشار إلى ما فيه من عناصر علمية تختبئ وراء بناء هذا الصنم ما إذا عمت وانتشرت في مصر لتطورت ومشت إلى الأمام.

وَلاحَ بينهما 'بلهيبُ' متجهاً   للشرقِ، يلحظ مجرى النيلِ من أممِ
كَأَنَّهُ رَابِـــضٌ لِلْوَثْبِ، مُنْتَظِرٌ   فريسةً؛ فهوَ يرعـــــــــاها، وَلَمْ ينم
رمزٌ يدلُّ على أنَّ العلـومَ إذا   عَمَّتْ بِمِصْـرَ نَزَتْ مِنْ وَهْدَةِ الْعَدَمِ

أخذ بألبابنا ما في ديوان البارودي من الأشعار المعتمدة على وصف مصر، كما أخذت الطبيعة المصرية البديعة بِلُبِّهِ حيث افتخر بها وتغنى بجمالها ورونقها، وقد تجلت وطنية الشاعر الصادقة في الأبيات التي وصف فيها الطبيعة المصرية فكثيرا ما نراها ترِد في الأبيات المستهدفة إلى إيجاد مواطن مصري يحمل في قلبه شعور الوطنية المصرية أو إبراز حبه لوطنه وتشوقه إليه. تناول البارودي في وصف (روضة المقياس) في عدة مواضع من قصائده، كما وجدناه يصف روضة المقياس التي تنساب خلالها الجداول، ويتجمدّ ماءها مثل الدروع المحكمة في الجو البارد، ويتلألأ في حر الشمس مثل السيوف التي أُخرجت من الغمد.

فيـــــا برقُ حدِّثنى، وأنتَ مصدَّقٌ عَنِ الآلِ وَالأَصْحَابِ مَا فَعَلُوا بَعْدِي
وعن روضةِ المقيـــاس تجرى خلالهـا جَدَاولُ يُسْدِيها الْغَمَـــامُ بِمَا يُسْدِي
إذا صافَحَتْهـــا الرِّيـحُ رَهْواً تَجعَّدَت حبائكهـــــــــا مثلَ المقدَّرة السَّرد
وَإِنْ ضَاحَكَتْهَا الشَّمْسُ رَفَّتْ، كَأَنَّها مناضــــلُ سلَّت للضِّرابِ من الغمدِ

عند ما كان الشاعر في منفاه اشتد حنينه إلى تلك الروضة التي طالما حن إليها، فيدعو لها بألا تمسها المصائب، وألا تمنعها السماء من مائها، فيصف أوراق أشجارها بأنها مثل حلل السندس؛ المزينة بألوان الوشي، ويصف الأشجار العظيمة فيها؛ وعلى أغصانها من الحمام الحسن الصوت (Al-Barudi, 2013). ولاحظنا الشاعر يصف روضة المنيل وهي إحدى جزر النيل التي وصفها الشاعر، والتي تمنى رؤيتها وهو في منفاه، حيث وصف ماؤها بالفضة الذائبة، وتذكر الأشجار والعيون التي بها وتربتها التي تفوح بالطيب أيام النسيم (Al-Barudi, 2013).

افتخر الشاعر بوصف النيل في قصائد عدة، كما أبدع في وصف الماء الصافي فيه، حيث شبهه بالسيف الذي اهتز حامله، كما شبه الغصون المتمايلة الخافقة في حافتي النهر بالثياب الموشية التي تحركها النساء، علاوة على وصف ماء النيل بأنه مثل العسل الخالص.

حَبَّذَا النِّيلُ حِيــــنَ يَجْرِي فَيُبْدِي   رَوْنَـــــقَ السَّيْفِ، وَاهْتِـــزَازَ الْفِرِنْدِ
تَتَثَنَّى الْغُصُــــونُ في حَـــــافَتَيْهِ   كَالعَذَارَى يَسْحَبْــنَ وَشْيَ الْفِرِنْـــدِ
كيفَ لاتهتِـــفُ الحَمـــامُ علَيهِ؟   وهِي تُسقـــى بـــهِ سُلافةَ قَنـــدِ

تمنى الشاعر شربة ماءٍ من النيل وهو في منفاه، وقيلولةً تحت الأشجار في حافتيه على النبات مثل السجادة المصنوعة من الصوف؛ وتذكر الأشجار المزدهرة؛ وأزهارها تطير في الريح كما يطير الفراش أيام الربيع، إضافة إلى وصفه بأن مصر أطيب أرض الله (Al-Barudi, 2013) وقفنا أيضا أن الشاعر يعمد إلى وصف الطبائع المصرية، حيث تناول وصف الحدائق والمنابت والقطن والتراب والماء في البلاد المصرية (Al-Barudi, 2013). كما تناول الشاعر وصف الطبيعة المصرية العامة من الماء والنبات الخضرة، وظلال أشجارها الكثيفة، وزهرها الداني.

4- أشعاره في العلم والتعليم:

لم يستعمر الأوروبيون البلاد العربية إلا في العهود التي شاعت فيها الجهالة، لأنهم كانوا على أدق العلم حول الكنوز التي تحت أقدام العرب عامةً، وفي البلاد المصرية خاصةً. وقد أدرك البارودي هذا الأمر كل الإدراك، وعرف أن السرّ الحقيقي للنهضة الأوروبية في شتى المجالات يرجع إلى العلم والمعرفة، فشجع المصريين على التعليم في قصائده، مستهدفاً تقويتهم مادياً ومعنويا، وإلى الحفاظ على ثروة مصر وبركاتها من أيدي المستعمرين.

والقطعة من القصيدة التي تتضمن ثمانية وثلاثين بيتاً، تخبر عن مدى اهتمام الشاعر بالتعليم، حيث حث الشعب المصري على طلب العلم فقال إن التعليم هو الأداة التي تقوي شوكة المصريين، فللعلم تأثير بالغ لا يدركه سيفٌ قاطع، والعكوف عليه يجلب إلى البشرية العزة والكرامة، كما وجّه الشاعر نظرته الخاصة إلى أهمية التعليم للصغار، فقال:

بقوةِ العلمِ تقـــــوى شوكةُ الأممِ   فَالْحُكْمُ في الدَّهْرِ مَنْسُوبٌ إِلَى الْقَلَمِ
كمْ بينَ ما تلفظُ الأسيافُ منْ علقٍ   وَبَيْنَ مَا تَنْفُثُ الأَقْـــلامُ مِنْ حِكَمِ
لَوْ أَنْصَفَ النَّاسُ كَانَ الْفَضْلُ بَيْنَهُمُ   بِقَطْـــــرَةٍ مِنْ مِدَادٍ، لاَ بِسَفْكِ دَمِ
فاعكفْ علىَ العلمِ، تبلغْ شأوَ منزلةٍ   في الفضلِ محفـــــوفةٍ بالعزِّ وَالكرم
وَلِلْفَتَى مُهْلَــةٌ فِي الدَّهْرِ، إِنْ ذَهَبَتْ   أَوْقَاتُــهَا عَبَثاً، لَمْ يَخْلُ مِنْ نَدَمِ

لاحظنا أن الشاعر قد عمد في بعض النصوص الوطنية إلى بيان آثار العلم والتعليم على نحو ما نجده في النصوص الآتية، حيث وصف العلم بأنه مدار العدل، كما أوصى المصريين بعدم الاعتماد على المال فقط، بل على قسط كاف من العلم والمعرفة، ورب غني يحتقر بجهالته، ورب عالم يحترم بعلمه (Al-Barudi, 2013). وأبرز تأنيبه على الجهالة السائدة لدى المصريين في عصره، فذكرها بأنها عدوة للحضارة المصرية، ولو ردّ الله روح هرمس، لصاح من البكاء على هذه الحالة التي غطتها ظلمة الجهل.

ولمسنا الشاعر في بعض نصوصه الشعرية يتحدث عن أهمية بناء المدارس، ودورها في المجتمع، وإنها مثل الفلك، والطلاب المتخرجون منها مثل النجوم النيرة، ويتخرج منها خيار الشخصيات في مختلف الفنون والعلوم، فبهم تصلح أحوال الدنيا، ويقام العدل والمساواة، ويختم القصيدة سائلاً: كيف يستقر العدل في بلد لم يتملك أهله قدراً كافيا من العلم.

شيدوا المدارسَ؛ فهي الغرسُ إنْ بسقتْ　　أَفْنَانُهُ أَثْمَــــــرَتْ غَضّاً مِنَ النِّعَـــمِ
كأنها فلكٌ لاحـــــــــتْ بهِ شهبٌ　　تُغْنِي بِرَوْنَقِهَـــــا عَنْ أَنَجُمِ الظُّلَمِ
فَكَمْ تَرَى بَيْنَهُمْ مِنْ شَاعِــــــرٍ لَسِنٍ　　أَوْ كَاتِبٍ فَطِنٍ، أَوْ حَــــاسِبٍ فَهِمِ
ونابغٍ نالَ منْ علمِ الحقــــــوقِ بها　　مَزِيَّةً أَلْبَسَتْهُ خِلْعَــــــــــةَ الْحَكَمِ
بَلْ، كَمْ خَطِيــبٍ شَفَى نَفْساً بِمَوْعِظَةٍ　　وَكَمْ طبيبٍ شفى جسماً منَ السقمِ
قَــــــوْمٌ بِهِمْ تَصْلُحُ الدُّنْيَا إِذَا فَسَدَتْ　　وَيَفْـــرُقُ الْعَدْلُ بَيْنَ الذِّئْبِ وَالْغَنَمِ
وَكيفَ يثبـــــتُ ركنُ العدلِ في بلدٍ　　لم يَنْتَصِبْ بَيْنَهَـــا لِلْعِلْمِ مِنْ عَلَمِ؟

تناول الشاعر التنويه بالآثار الفرعونية، وذلك بقصد حث المصريين على النهضة العلمية، فذكر في الأبيات الآتية أن ما ظهر من خزائن الأرض إنما هو من نتائج مداولة الأفكار في الحفريات والتنقيبات، كما وجّه أنظارهم إلى الأهرام وأبي الهول حيث بُنيت على علوم هندسية دقيقة، وإلى أبي الهول الذي ظهرت فيه العبقرية لمن بناه (Al-Barudi, 2013).

تطرق الشاعر في الأبيات الآتية إلى تنبيه الشعب المصري عما يملكه المصريون القدماء من علوم وفنون، حيث بنوا تلك الآثار العظيمة الشأن على مدى العصور، فيقول الشاعر إن هذه المباني الشامخة، دالة على أن الإنسان ذو قدرةٍ عظيمة، كما أن هناك علوم غامضة اشتغل فيها القدماء المصريون، وآثار مدهشة بنوها، وإذا حاولنا الحصول على ما فيها من أسرار، نجد أعجب الأمور من أعاجيب الزيج والجبر، وكأنه بلغ النشوة بما في صنع الآثار من أسرار محكمة.

مَصانعُ فيها للعلومِ غوامِـــــضٌ　　تَدُلُّ عَلَى أَنَّ ابْـــنَ آدَمَ ذُو قَدْر
رسا أصلُها، وامتدَّ فى الجَوّ فَرعُها　　فأصبَـــحَ وكراً للسِماكَينِ والنَسرِ
فَثمَّ علومٌ لم تفَتَّق كِمــــــــــامُها　　وثَمَّ رمـــوزٌ وحيُها غامِضُ السِرِّ
إذا ما فتحنا قفـــلَ رمزٍ بَدت لنا　　مَعَارِيــضُ لمْ تُفْتَحْ بِزِيجٍ وَلاَ جَبْرِ

فَكَمْ نُكَتٍ كَالسِّحْرِ فِي حَرَكَاتِــهِ تُرِيكَ مدبَّ الرُّوحِ فى مُهجَةِ الذرِّ
سَكِرْنَا بِما أَهْدَتْ لَنَـــا مِنْ لُبابِها فيــا لكَ مِن سكرٍ أتيحَ بلا خَمرِ!

5– إشادته بالأبطال الوطنيين.

من الفنون الوطنية في أشعار البارودي إشادته بالأبطال الوطنيين على وجه الخصوص، فضلاً عما لاحظناه في بعض النصوص بأنه يثني على الأبطال القدماء الذين دافعوا عن مصر دفاعاً شديدا؛ كما نجد في الأبيات الآتية بأن الشاعر يذكر أيام حروبهم وشجاعتهم ونجابتهم، وما أنجزوا فيها من فتوحات باهرة حتى نالت بهم الأمة المصرية الشرف والعزة والكرامة.

وَفتيةٌ كأسودِ الغـــــــــابِ، ليسَ لهمْ إلاَّ الرمـــــــــاحُ إذا احمرَّ الوغى أجمُ
كالبرقِ إنْ عزموا، والرعدِ إنْ صدموا وَالْغَيْثِ إنْ رَحِمُوا، وَالسَّيْلِ إنْ هَجَمُــوا
مَاتُوا كِرَامــــــــاً، وَأَبْقَوْا لِلْعُلا أَثَـراً نَــالتْ بِهِ شَرَفَ الْحُرِّيَّةِ الأُمَـــمُ

وعلى وجه الخصوص، دفعته وطنيته المصرية إلى التغني ببعض الأبطال الوطنيين الذين قاوموا معه الحكومة الفاسدة والمستعمرين، أو الذين حركوا موجات الشعور الوطنية عند المصريين بما قاموا به من ثورات علميةٍ لترقية البلاد المصرية، ومن أشهرهم رفاعة الطهطاوي كان من أشهر المبتعثين إلى البلاد الأوروبية في البعثات العلمية، عاد إلى وطنه طموحاً إلى الإصلاح والتغيير، وقد تحدث في مصر عما رآه في فرنسا من نظام مجلس النواب، ثم تحدث عن الحرية السياسية والمساواة، وبصّر المصريين بحقوق الأمم الراقية بترجمته للدستور الفرنسي، كما امتاز شعره بين الشعراء الذين عاصروه بالعاطفة الوطنية (Al-Hufi, 1978).ولم ينس البارودي هذا البطل الذي قام بالثورة العلمية بمصر وحرّك الشعور بالوطنية عند المصريين، بل أشاد بما قام به من إصلاحات فيما رثى ابنه علي رفاعة باشا، حيث قال إنه أحيى البلاد المصرية بعلمه الوفير، وبتوجيهاته ارتفع المصريون إلى قمة العلا والشرف، وهو الأول عند السباق في جميع المجالات(Al-Barudi, 2013).

فأنتَ ابنُ منْ أحيا البلادَ بعلمهِ وَأبقى لهُ ذكـراً بكلِّ مكانِ
أَفَادَ بَنِي الأَوْطَــانِ فَضْلاً سَموْا بِهِ إِلَى هَضَبَاتٍ فِي الْعُلاَ وَقِنَانِ
وَأنتَ ابنهُ، والفـــــرعُ يتبعُ أصلهُ وَمَا مِنْكُمَا إلاَّ جَوَادُ رِهَــانِ
هوَ الأولُ السبــاقُ في كلِّ حلبةٍ وَأنتَ لهُ دونَ البريةِ ثــــــاني

وكان جمال الدين الأفغاني أحد رواد النهضة المصرية، أثرت آراؤه وأفكاره على البارودي حيث تغنى بهذه الأبيات الآتية، إذ شبه أفكاره بالنجوم النيرة، كما ذكر أنه أول من قام بالصولة ضد السياسة الفاسدة والمستعمرين، وأن طبيعته لم تتغير أمام الحكومة القاسية، فيشيد الشاعر بموهبته الفذة في اللغة العربية، وفصاحته وطلاقة لسانه رغم أن مولده كان في بلاد العجم.

يا لكَ منْ ذي أدبٍ! أطلعتْ فِكْرَتُهُ ثَاقِبَـــــــــــــةَ الأَنْجُمِ

حَازَ مَدًى قَصَّرَ عَنْ شَـــأْوِهِ   كُلُّ أَخِي سَـــــابقَةٍ مِرْجَمِ
ذو فكرةٍ فـــاضتْ بما أودعتْ   مِنْ حِكْمَةٍ، كَالْعَـارِضِ الْمُثْجِمِ
ألفاظهُ تعـــــزى إلى 'يعرب'   وَفِكْرُهُ مُقْتَبَـــــسٌ مِنْ (جَمِ)
دلَّ على معدنهِ فضلـــــــهُ   دلالةَ التبـــــرِ على المنجمِ

وربطت علاقة وطيدة بين البارودي وبين محمد عبده؛ فهما معاصران ولهذا شاركا سوياً في مقاومة السياسة الفاسدة، حتى نفي أحدهما إلى سريلانكا، والآخر إلى بيروت، وقد اشتاق الشاعر إلى حميمه وهو في منفاه، وافتخر بصداقتهما الحميمة، حيث إن محمد عبده هو الذي ردّ على ما أُطلِق على –الشاعر– من تهم في وطنيته المصرية، ولهذه المساعدة يعتبره الشاعر أكثر عونٍ له من أقربائه، فهو المؤتمن عند التشاجر والمشكلات، أخبرت شمائله على فضله كما أعلنت النفحة الطيبة عن الورد.

فهلْ إلى عـــــــودةٍ ألمُّ بهـا شملي، وألقى 'محمداً' سنـــنُ؟
ذاكَ الصديقُ الذي وثقتُ بهِ   فَهْوَ بِشُكْرِي وَمِدْحَتِي قَمِـــنُ
عَـــاشَرْتُهُ حِقْبَةً، فَأَنْجَـــدَنِي   منهُ الحجا، وَالبيـانُ، وَاللسنُ
ينصـــرني حيثُ لا يكادُ حمٌ   يمنـــــحني ودهُ، وَلاَ ختـــنُ
قدْ كانَ ظني يسيءُ بالنـاسِ لوْ لاهُ، وفردٌ يحيـــــا به الزمنُ
فَهْوَ لَدَى الْمُعْضِلاَتِ مُسْتَنَدٌ وَعندَ فقدِ الرجـــــاءِ مؤتمنُ
نَمَّتْ عَلَى فَضْلِهِ شَمَـــــائِلُهُ   وَنَفْحَةُ الْوَرْدِ سِرُّهَا عَلَـــــنُ

6- قصائده في المجلس النيابي والدستور

وقد سار البارودي على مشروع سياسي، وهو تأسيس حكومة دستورية ديمقراطية تكفل المساواة والعدل للشعب المصري، ولهذا أصبح بحق "شاعر الشورى" كما يعتبر أباً للدستور في مصر القرن التاسع عشر(Hadid, 1990)، وتظهر خطته السديدة من مقولته المشهورة: "كنا نرمي منذ بداية حركتنا إلى قلب مصر جمهورية مثل سويسرا، ولكننا وجدنا العلماء لم يستعدوا لهذ الدعوة...، ومع ذلك سنجتهد في جعل مصر جمهورية قبل أن نموت" (Husain, 1968) وانطلاقاً من مشروعه السياسي سعى مع المثقفين لإنشاء مجلس النواب والدستور في أواخر عصر الخديوي إسماعيل، فنجح مسعاهم فتألفت الوزارة الوطنية المسؤولة أمام المجلس النيابي برئاسة محمد شريف باشا الذي وضع لمصر دستوراً على المبادئ العصرية، ولكن الوزارة ألغيت بسبب خلع الخليفة العثماني الخديوي إسماعيل عن ولاية مصر(Dhaif, 2006).

فلما تولى الخديوي توفيق ولاية مصر سنة 1879م، أنشد البارودي قصيدةً يهنئه بها، كما أنه طلب من الخديوي الوفاء بوعده بإنشاء المجلس النيابي، وإصدار الدستور الذي أعده شريف باشا في أواخر عهد

إسماعيل، وقد أرشده الشاعر إلى إنشاء المجلس النيابي، وأن هذا أكرم خطة وعصمة للدين، فلا يقوى ملك بدون مشورة، وأن الرأي لا يمضي بدون مشورة (Al-Barudi, 2013).

سنَّ المشـــورةَ، وهي أكـــرمُ خطَّةٍ   يجرى عليها كل راعٍ مرشـــدِ
هِيَ عِصْمَةُ الدِّينِ التي أَوْحَى بهَـــا   رَبُّ الْعِبَـادِ إلى النَّبِيِّ (مُحَمَّدِ)
فَمَنِ اسْتَعَـــانَ بِهَا تَأَيَّدَ مُلْكُـــهُ   ومن استهانَ بأمرها لم يرشُدِ
فالسَّيْفُ لا يَمْضِـــي بِدُونِ رَوِيَّةٍ   وَالرَّأْيُ لا يَمْضِي بغَيْرِ مهنـد
فاعكفْ على الشورى تجد في طيِّها   من بينات الحكمِ مالم يوجـدِ

فلما أسندت رئاسة الوزارة إلى البارودي في شهر فبراير سنة 1882م، لأن اختيار الرئيس وقع بواسطة مجلس النواب، ولم يكن مباشراً من الخديوي، وكانت هذه طريقة فريدة في السياسة المصرية، وتحققت في وزارته أماني الشعب المصري وأماني نفسه، فتمكن من إعداد الدستور وإقراره في مجلس النواب، فارتفع صوت البارودي لهذه المناسبة في هذا البيت الآتي:

سعيت فأدركت المنى في طلابها وكل امرء في الدهر يسعى إلى أمر (Al-Barudi, 2013)

يبلغ البارودي وهو في منفاه ما أطلقته الرجعية والاستعمار عبر أقلامهما المسمومة في "حملة التشهير" ضد زعماء الثورة، محاولة في نشر الشبهات في نفوس الشعب المصري، فكان من التهم التي وجهت إليه أنه لم ينضم إلى الثورة إلا طمعاً في الوثوب على العرش المصري بعد خلع توفيق(Al-Hadid, 1990). فنظم الشاعر قصيدة يبرز فيها التبريرات التي ثار لأجلها؛ وأنه نهض للثورة منادياً للعدل، طالباً رضوان الله، ومنادياً للحكم النيابي المحكم على الدستور، ولم يكن طامعاً في جاه أو منصبٍ في تلك الثورة التي قام بها:

فَمَا غَيَّرَتْنِي مِحْنَـةٌ عَنْ خَلِيـــــقَتِي   ولا حوَّلتـنِي خدعَةٌ عَن طرائـــــقِي
يَقولُ أُناسٌ، إِنَّنِي ثُرتُ خالِعـــــاً   وَتِلْكَ هَنَـــاتٌ لَمْ تَكُنْ مِنْ خَلاَئِقِي
وَلَكِنَّنِي نَادَيْتُ بِالْعَدْلِ طَالِبـــــاً   رِضا اللهِ، واستنهضتُ أهلَ الحقائقِ
وَهَلْ دَعْوَةُ الشُّورَى علَيَّ غَضَاضَةٌ   وَفِيهَـا لِمَنْ يَبْغِي الْهُدَى كُلُّ فَارِقِ؟
بَلى، إنَّها فَـــرضٌ منَ اللهِ واجِبٌ عَلَى كُلِّ حَيٍّ مِنْ مَسُـــوقٍ وَسَائِقِ

ونجد في الأبيات من إحدى سرنديبيات البارودي ما يوحي عما كرسه في حياته؛ وهو تأسيس حكومة دستورية مسؤولة أمام المجلس النيابي، حيث أمر بها دين الإسلام.

لم أقترف زلـــــة تقضي علي بما   أصبحت فيه فماذا الويل والحرب
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني   ذنب أدان به ظلمـــــا وأغترب

7- مناضلته للاحتلال:

يعتبر الخديوي إسماعيل من فتح باب التدخل الاستعماري البريطاني والفرنسي، فسلك الخديوي توفيق مسلك أبيه في رضائه التدخل الأجنبي، حيث أعاد في عهده الرقابة الثنائية التي كانت ملغاة من قبل. فكان للاستعمار دور بارز في إلغاء الوزارة الوطنية التي تألفت برئاسة البارودي، فرأى البارودي أن هذا التدخل الأجنبي مما يمس كرامة مصر وعزتها، فقويت شعوره بالوطنية.

وقد أبرز الشاعر تأنيبه على الحكومة الفاسدة التي فتحت المجال للتدخل الأجنبي كما رأينا في الأبيات التي وبّخ فيها حكومتي إسماعيل وابنه توفيق. ونجد هناك أيضاً أبيات خاصة تتركز على بيان مساوئ الاستعمار على البلاد المصرية طوال الزمان، كما يقول الشاعر في الأبيات الآتية إن مصر ذلت واضطربت قواعدها بالسياسة المهادنة مع التدخل الأجنبي، فصارت مدينة الفسطاط التي كانت زهرة المدن ذليلة وحقيرة أمام المستعمرين لما أصابها من الخزي والهوان(Al-Barudi, 2013).

ذَلَّتْ بِهِمْ مِصرُ بَعْدَ الْعِزِّ واضْطَرَبَتْ   قواعـدُ الملكِ، حتى ظلَّ في خلـــلِ
وَأَصْبَحَتْ دَوْلَةُ الْفُسْطَاطِ خَـاضِعَةً بَعْدَ الإبـاءِ، وَكَانَتْ زَهْـرَةَ الدُّوَلِ

نرى تحسّر الشاعر في الأبيات الآتية على مصر بأنها غنيمة طوال الزمان لمن حلّ بها من العرب والعجم، وثروتها مقسمة بينهم، وأهلها عبيد وغلتها مملوكة لمن سطا عليها من الملوك والمستعمرين، ثم يهجو الخديوي توفيق وحكومته بأنه ذليل وحقير بين البرية، ودعواه بالملك مصيبة، ولم يطمئن الشعب المصري بتوليه عرش مصر التي كان النبي يوسف يحكمها، ولقد بلغ سخط الناس عليه مبلغه، لما قام به من الظلم والمهادنة مع المستعمرين، وأنه أذل من كافور الإخشيدي العبد المتهم في نسبه؛ لأنه أعز الملك المصري، وهذ أذلّه لإذعانه للاستعمار الأوروبي.

وَما مصـــــرُ عمرَ الدهرِ إلاَّ غنيمةٌ   لِمَنْ حَلَّ مَغْنَاهَا، وَنَهْبٌ مُقَسَّـــمُ
تَدَاوَلَهَا الْمُـلاَّكُ مِنْ كُلِّ أُمَّـــــــــةٍ   وَنـــــــالَ بها حظاً فصيحٌ وَأعجم
فَمَا أَهْلُهَـــــا إِلاَّ عَبِيدٌ لِمَنْ سَطَا   وَلاَ رَيْعُهَا إِلاَّ لِمَنْ شَـــــاءَ مَغْنَمُ
عدادكَ في سلكِ البريـــــــةِ خزيةٌ   وَدَعْوَاكَ حَقَّ الْمُلْكِ أَدْهَى وَأَعْظَمُ
لَقَدْ هَانَتِ الدُّنْيَا عَلَى النَّاسِ عِنْدَمَا   رَأَوْكَ بهَـا فِي مُلْكِ (يُوسُفَ) تَحْكُمُ
فَإِنْ تَكُ أَوْلَتْــكَ الْمَقَادِيرُ حُكْمَهَا   فَقَدْ حَــــازَهَا مِنْ قَبْلُ عَبْدٌ مُزَنَّمُ
فهذا أذلَّ الملكَ وَهوَ معــــــــزٌّ   وذاكَ أعــــــزَّ الملكَ وَهوَ مهضمُ

8- مدحه لحكام مصر.

اختفت أحاسيس البارودي الوطنية وراء بعض الأبيات التي مدح فيها حكام مصر؛ أمثال الخديوي إسماعيل، والخديوي توفيق، والخديوي عباس حلمي الثاني لما قاموا من إصلاحات وإنجازات دفعت عجلة نهضة مصر إلى الأمام، مما يدل على أن الشاعر كان أكثر همه أن يرى مصر تتجه نحو النهضة الوطنية، ولم يكن بحكم

نشأته وطبيعته العسكرية مداحا ولا متزلفا، وكان يحمل في قلبه هموما أكبر من مدح الحكام (Murasyadah, 2009).

وقد لاحظ البارودي في بداية عهد الخديوي إسماعيل بوادر النهضة التي شاعت في نواحي الحياة، وتجلت وطنيته الخالصة في مدحه للخديوي عندما تولى عرش مصر في بهجته بطلوع العهد الجديد لمصر، فكان يهنئ المصريين ببشارة الأمن والسلامة، ثم يمدحه بأنه أضاء مصر من ظلمات الجهل والجور، وأعادها إلى ما كانت عليه في عصور ازدهارها.

طرب الفـــــؤاد وكان غير طـروب والمرء رهن بشـــــاشة وقطوب

فلتهن مصــر وأهلهـــــا بسلامة جـاءت لها بالأمن بعد خطوب

ورد البلاد وليلهــــــا متــراكب فأضــاءها كالكوكب المشبوب

بروية تجلـــــــو الصـواب وعزمة تمضي مضـــاء اللهذم المذروب

وأعاد مصر إلى جمـــــال شبابها من بعد ما لبست خمار مشيب

فتنعمت من فيـــــضه في غبطة وتمتــعت من عدله بنصيب

ثم يرشده إلى أداء الأمانة التي حملها على كاهله، وإلى أداء ما عليه من الحقوق تجاه مصر ومواطنيها، ويذكّره بأن الله ولاّه تلك الأمانة، كما أن المصريين آثروه لقوة علمه وعقله(Al-Barudi, 2013). وتبين شعوره الوطني الخالص في الأبيات التي نظمها، حيث يهاجم فيها سياسة الخديوي إسماعيل عندما انحرف عن الرشاد والسداد في القضايا المصرية، فكان ينادي الشعب المصري إلى الانقلاب والثورة ضده، كما ناقشنا سابقا.

ويعدّ ما نظمه البارودي من أبيات في تهنئة الخديوي محمد توفيق بجلوسه على الأريكة الخديوية ما يوحي بالوطنية الصادقة، ويبشر أهلَ مصر بولايته، ويذكر أن مصر أصبحت منارة يزورها الناس من أنحاء العالم، ويشبّه عنايته بالعدل برعاية الوالد لولده، وشجاعته في الحرب بصولة الملك المتكبر، كما يبشر الشعب المصري بما كان في أمنيتهم من الحياة السعيدة.

أبنيِ الكنـــــــانةَ أبشِروا بمحمَّدٍ وثِقوا بـــــراعٍ فى المكارم أوحدِ

فَهُوَ الزَّعِيمُ لَكُمْ بِكُلِّ فَضيــــــلةٍ تَبْقَى مَآثِرُهَا، وَعَيْـــــشٍ أَرْغَدِ

وَصَفَتْ مَــوَارِدُ مِصْرَ حَتَّى أَصْبَحَتْ بعدَ الكدورةِ شرعــــــــةً للورَّد

فَالْعَدْلُ يَرْعَـــــــــاهَا بِرَأْفَةِ وَالِدٍ والبأسُ يحميــــها بصولةِ أصيَدِ

بَلَغَتْ بِفَضْـــــلِ (مُحَمَّدٍ) مَا أَمَّلَتْ مِنْ عِيــــشَةٍ رَغَدٍ وَجَدٍّ أَسْعَدِ

ويطلب الشاعر من الخديوي إقامته العدل والمساواة بين أبناء المصريين الذين أصبحوا بمنزلة فريسة يطمع فيها كل ظالم ومعتد، كما يرجو منه أن يكون سيداً كريما لمصر، ثم يرشده إلى الدوام على الأعمال الخيرية التي ينتفع بها المصريون (Al-Barudi, 2013).

أما الخديوي عباس حلمي باشا الثاني الذي تولى مصر سنة 1892م، فقد كان ولي نعمة الشاعر البارودي، لأنه أولاه بحسن الرضا لعودته من منفاه، وقد مدحه الشاعر في بعض القصائد في سياق الشكر، لكن روح الوطنية المصرية ظهرت في إشادة الشاعر بالنهضة الوطنية التي قام بها الخديوي، وذكر عدالته التي عمت في البلاد المصرية وإسهاماته في شيوع الأمن فيها.

وَما 'مصـرُ' إلاّ جنةٌ، بكَ أصبحتْ مُنَوّرَةً أَفْنَانُهَا وَالْخَمَـــــــائِلُ

وَأَجْرَيْتَ مَاءَ الْعَدْلِ فِيهَا؛ فَأَصْبَحَتْ وَسَاحَاتُهَا لِلْوَارِدِينَ مَنَاهِـــــلُ

وَلَمْ يأتِ منْ أوطــانهِ 'النيلُ' سائحاً إِلَى (مِصْرَ) إلاَّ وَهْوَ حَرَّانُ سَائِلُ

مليكٌ أقرَّ الأمنَ وَالخـــوفُ شاملٌ وأحيا رميمَ العدلِ وَالجـورُ

وكان الخديوي عباس حلمي الثاني يواصل سياسة التحدي للاحتلال بما أن السلطان العثماني عبد الحميد حثه على معارضة إنجلترا، ولم ينجح الخديوي في محاولاته لشدة الضغوط الاستعمارية عليه حتى خلعته من عرش مصر. وفي الأبيات الآتية، يبشره الشاعر بالفتح العظيم في محاولاته ضد الاحتلال، كما يذكر أن الخديوي بحسن التدبير في سياسته واجه عدة خطوب ليست في استطاعة أحد مواجهتها، ثم يرشده البارودي في البيت الأخير إلى حفظ السيادة المصرية المستقلة عن تدخل الاستعمار الأوروبي.

يَأيُّها المالِكُ المَيـــــمونُ طـائرهُ أَبْشِرْ بِفَتْحٍ عَظيــــمِ الْقَدْرِ مَنْظُورِ

إِنَّ الْخُطُوبَ الَّتِي ذَلَّلْتَ جَـــانِبَهَا بِحُسنِ رَأيكَ لَم تُقدَر لمقــــــــدورِ

بَلَغْتَ بِـالشَّرْقِ مَا أَمَّلْتَ مِنْ وَطَرٍ وَنِلْتَ بِالْغَرْبِ حَقّاً غَيْـــرَ مَنْكُـورِ

فاسلَم لِمُلكٍ مَنيعِ السَّـرحِ تَكلَؤهُ بِعَيْنِ ذِي لِبَدٍ، فِي الْغَـــابِ مَخْذُور

الخلاصة

وقد توصلت هذه الدراسة إلى أبرز النتائج وهي تجلى الاتجاه الوطني عند البارودي بشكل ملحوظ، كما أن عطاءه الوطني اختلفت أشكاله بين المراحل التي مرّ بها في حياته؛ حيث انكشفت عاطفته الوطنية على استحياء وراء حنينه وتشوقه إلى وطنه في القصائد التي نظمها في المرحلة الأولى التي تمثلت في حياته العسكرية. وفي المرحلة الثانية التي انخرط فيها الشاعر في السياسة المصرية، كان يسجل في عطائه الشعري أنغاماً رائعة وقوية في الوطنية المصرية، حيث قاوم بعيون أشعاره الفساد السياسي وتدخل الاستعمار الأجنبي، كما أصرّ على تأسيس الدستور والمجلس النيابي. وفي المرحلة الأخيرة جادت قريحته في تشوقه وحنينه إلى وطنه وهو في منفاه.

بينما أسهمت عدّة عوامل في إيقاظ الوعي الوطني لدى الشعب المصري بشكل عام، ألقت هذه الدراسة الضوء على أسباب تعاونت في تكوين شخصية البارودي الوطنية مما حرّكت وطنيته المصرية، ومن

أبرزها: حبه الشديد لمصر، وشخصيته الفروسية، وعنصره الشركسي، وحياته العسكرية، واشتغاله في السلك السياسي المصري، وتأثره بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وعلاقته مع أحمد عرابي قائد الثورة الوطنية.

وقد استنتجت هذه الدراسة أن الشاعر البارودي قد وسع نطاق الشعر الوطني مع أن الاتجاه الوطني برز في أشعار رفاعة الطهطاوي. واستثمر موهبته الشعرية للتعبير عن تجربته الخاصة الوطنية، وتحريك مشاعر الوطنية المصرية في نفوس الشعب المصري، وذلك في تسجيل قصائده الوطنية على عدة فنون من حبه لمصر وحنينه إليها، ومقاومته ضد الفساد السياسي، وفخره بالآثار المصرية الفرعونية والطبيعة المصرية، وتحريضه على النهضة التعليمية، وإصراره على تأسيس الدستور والمجلس النيابي، وإشادته بالأبطال المصريين، ومناضلته للاستعمار الأجنبي، ومدحه لحكام مصر.

المراجع

Al-Barudi, M. S. (2013). *Diwan Al-Barudi*. Beirut: Dar An-Nawad.

Al-Hadid, A. (1990). *Mahmud Sami Al-Barudi Syair An-Nahdah*. Kairo: Maktabah al-Anjalu al-Misriyah.

Al-Hufi, A. M. (1978). *Wathaniyah Syauqi: Dirasah Adabiyah Tarikhiyah Muqaranah*. Mesir: Maktabah Nahdah.

Ammarah, M. (2014). *Jamaluddin Al-Afghani Muqid Syarq wa Filsuf Al-Islam*. Kairo: Dar Syuruq.

An-Nami, A. (1994). Syi'ir Al-Barudi baina Turats wa Muasirah. In *Daurah Al-Barudi: Abhats An-Nadwah wa Waqaiuha*. Kuwait: Muassasah Jaizah Abdul Aziz Su'ud Al-Babatin lil Ibda Syi'ri.

Ar-Rafi'i, A. (1992). *Syu'ara Al-Wathaniyah fi Misr*. Kairo: Darul Ma'arif.

Az-Za'bi, A. A. F. (2009). *At-Tarbiyah Al-Wathaniyah fil Islam* (1 ed.). Yordania: Dar Ma'man.

Dhaif, S. (2006). *Al-Barudi Raid Syi'ir Hadis*. Beirut: Darul Kutub Ilmiah.

Fawaz. (2000). *Al-Adab Al-Arabi*. Beirut: Darul Jail.

Husain, M. M. (1968). *Al- Ittijahat al Wathaniyah fil Adab Al-Muasir* (2 ed.). Damaskus: Maktabah Al-Adab.

Kanja, N., & Mazid, Ma. S. (2017). Syi'rul Manfa wal Mugtarab ladai Mahmud Sami Al-Barudi. *Journal of the Iranian Association of Arabic Language and Literature*, *21*(1), 31.

Murasyadah, A. A. H. (2009). *Fi Asy-Syi'ri Al-Hadis Mahmud Sami Al-Barudi*. Beirut: Dirasah Fanniyah.

Sholabi, A. M. (2015). *Al-Harakah Al-Qaumiyah Al-'Arabiyah fil Qornil 'Isrin Dirosah Siyasiyah*. Beirut: Markaz Dirosah Wahdah Arabi.

Swailem, A. (1997). *Mahmud Sami Al-Barudi Faris Syu'ara*. Kairo: Dar al-Mishriyah Al-Lubniyyah.

This Page Is Intentionally Left Blank

تركت هذه الصفحة فارغة عمدا

'Halaman Ini Sengaja Dikosongkan'